رهانات اللغة العربية في ظل العولمة

أ. د. عبد القادر فيدوح

جامعة البحرين – الجزائر

تحاول هذه الدراسة أن تقف عند جملة من الأسئلة الجوهرية المتصلة باللغة العربية وعلاقتها بالهوية الوطنية، والأمة العربية، وتصل أبعادها المختلفة إلى ارتباطها بالمكون الحضاري في حدود تواصلنا مع الآخر، بدرجات متفوتة.

وبيْن معظم لغات العالم، الحية، تثير إشكالية اللغة العربية في مجتمعاتنا العربية حيزا معتبرا من الجدل حول إمكانية وجود علاقة هذه اللغة بالنشاط **الإبداعي** / **العلمي**، في وقت تحتاج فيه الأمة العربية بوجه عام إلى الدخول في خانة الإبداع الكشفي، التكنولوجي، والإسهام في صناعة التحديث الحضاري المنسجم مع مساعي الألفية الثالثة. وإذا كان ذلك كذلك فهل يمكن أن تسهم اللغة العربية في البناء الاجتماعي للأمة العربية في الألفية الثالثة ؟ ثم كيف تحافظ مؤسسات المجتمع المدني على اللغة بوصفها عملة متداولة بين مجتمعنا؟. وقد يكون أجدى في هذا المقام أن نبحث عن المبادئ والقيم التي تجعل من اللغة العربية لغة معارف علمية . وقبل ذلك كيف نحافظ على هذه اللغة الرصينة في بيانها ؟ وكيف ندفع بها إلى مواكبة العصر؟.

إن تنمية القدرة اللغوية في **أبسط أداء لها** هي تحسين مستوى التعبير، ولعلنا ندرك خطورة هذه البداهة عندما نستشف محصلة اللغة التداولية بين شبابنا وهو خالٍ، وفارغ من أي رصيد لغوي سليم.

وبالنظر إلى لكنة القول، وعجمة اللسان التي استبدلوا بها سلامة اللغة ـ على الأقل ـ في وضوح نطقها في العهد القريب جدا فإن ما يروَّج له من تداول لفظي في لحن القول، وتلكؤ اللسان، لا يُظهِر ما يُخفي صدر القائل؛ لعجزه عن التعبير وعن مكوناته، أضف إلى ذلك أن ما نجده في تأنق كلام بعض إعلاميينا، وتنطعهم بالكلام الدارج ـ وحتى بعض المسؤولين ـ على مساحة وسائل الإعلام المتعددة ما يفسر مقتهم للغة العربية، وكأن البغضاء تبدو من ألسنتهم؛ الأمر الذي انعكس سلبا على جيلنا المتخذ من مسئولينا ومثقفينا وإعلاميينا قدوة بالنظر إلى لسان واقع الحال.

أمام هذا الخطر المحدق لابد من إيجاد سبل تحرك تفعيل اللغة العربية في وطن وضع في مبادئه العامة ضوابط تحكم المجتمع الجزائري المنصوص عليها في الدستور بخاصة المادة، الثانية التي تنص على أن الإسلام دين الدولة، وفي المادة الثالثة التي تنص على أن « اللغة العربية هي اللغة الوطنية الرسمية (1).

(1) تم تعديل الدستور بموجب قانون رقم 02–03 مؤرخ في 27 محرم عام 1423 الموافق 10 أبريل سنة 2002، يتضمن تعديل الدستور. المادة 3 مكرر: تمازيغت هي كذلك لغة وطنية. تعمل الدولة لترقيتها و تطويرها بكل تنوعاتها اللسانية عبر التراب الوطني». (1)

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

تحديات صارخة :

يعد الحديث عن اللغة العربية المتعثرة في المجتمع الجزائري ـ في واقع الحال، بالنسبة إلى كافة الوطن العربي ـ سابقة خطيرة ينبغي تداركها، وهي ظاهرة لم تشهدها الجزائر حتى إبّان الاحتلال الذي حاول طمس أثر اللغة العربية من ذاكرة الثقافة الجزائرية.

وإذا كانت اللغة العربية في السنوات الأخيرة تشهد تراجعا مثيرا ولافتا، نظرا إلى حدة خطورته، فإننا نخشى أن يمتد هذا التراجع ليصبح مرضا ـ لسانيا ـ مزمنا يصعب علاجه . ولعل سبب تخوفنا يكمن في الفزع من التأثير السلبي على صياغة أفكار جيلنا الواعد، وعلى سلوكه المعرفي والأخلاقي، ومن أجل ذلك يفتَرض أن يكون لدى مسئولينا المبادرة الحاسمة في اتخاذ ما يلزم بغرض التصدي لهذا الهاجس المرعب والمخيف على مكونات ثقافتنا وهويتنا.

وفي اعتقاد الكثير من الباحثين التربويين ومنظري المعارف والعلوم أن أي شخص لا يمكنه أن يرتقي من نقص في مهارة التعبير، والتوسع والتمكن منها، إلا بالوصول إلى مطلوب اللغة، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن تشخيص اللغة لدى الفرد يكمن في توسع بُعد النظر، ومحو المجهول، وتثبيت المعلوم، وتقريب المقصود، بسرعة يصعب فيها على غير المتعلم، أو المتمكن من الكفاية اللغوية، إدراك الأشياء، في حين يسهل على المتعلم كشف الحقائق والتعبير عنها بيسر ؛ الأمر الذي يسهم في نمو معارفه وأفكاره في الحياة العملية والعلمية .

كما أن الكفاية اللغوية تعتبر حصانة لحسن الطوّية، وضمان من أي ضرر يهدد المجتمع ويخل بالأمن الفكري ـ على وجه التحديد ـ بوصفه لبّ الجوانب الأمنية الأخرى، وخالصها، وخيارها في شتى المجالات سواء منها الثقافية، أم الاجتماعية، أم السياسية، أم الاقتصادية إلى غير ذلك من دعائم المؤسسات الاجتماعية وسندها القوي.

ومن هذا المنظور يكون من بابٍ أولى الوقوف بحزم أمام تفشي ظاهرة لغة الشارع الهابطة التي تشيع في أوساط شريحة عريضة من مجتمعنا، حتى باتت تدخل الأوساط الرسمية سواء عبر وسائل الإعلام، أم في المحافل الرسمية ،كما باتت تنافس اللغات الثلاث الأخرى المستعملة، وهي اللغة العربية، واللغة الأمازيغية، واللغة الفرنسية. وقد يكون من تفشي هذه الظاهرة الغريبة ـ سواء عن قصد أم عن غير قصد ـ هو إفساد الذوق اللغوي المعهود، بفعل سياقاتها المنحرفة التي يتكلم بها شبابنا برطانة، وبلهجة ملتوية، قد يصعب فهمها أحيانا حتى في المنطقة نفسها، كونها مركبة من معظم اللغات كالفرنسية، ولإنجليزية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية، وقد لا نستغرب إذا تأكدنا من توظيف كثير من الكلمات الصينية مؤخرا، والحبل على الجرار . كل ذلك من شأنه أن يجعل الفرد غير محصن، مما قد يتسبب في زعزعة الحياة والاستقرار الأمني، أو السياسي، أو الاقتصادي، والإضرار بالتركيبة الاجتماعية والثقافية، ولنا في ذلك تجربة مريرة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شهدها وطننا الغالي في العشرية السوداء من السنوات التسعين نهاية الألفية الثانية،كل ذلك بسبب التلوث اللغوي الذي أثمر تلوثا فكريا، حين رُفعت الأقلام وطويت الصحف، وأحضِرت الوسائل غير المبررة التي استوجبت الخرق، وتجاوز المعقول، حتى أصبح كل واحد منا في حكم قول الشاعر:

لعَمْرُك ما أَدْري وإني لأَوْجَلُ   على أينـا تغـدو المنية أول

فتسرع الفعل الأرعن، والقول الأهوج، وعمَّ الهوس عقول الكثيرين. وقد ذكرنا في مناسبات عديدة **أن إمساك قلم بيد ضمان لإبعاد هذه اليد عن وسيلة جارحة** التي من شأنها أن تؤدي إلى التشدد في جميع مراميه ومقاصده، من أي اتجـاه كان يسعى إلى زعزعة الاستقرار وإثارة الفتنة.

ومن هنا ندعو مسئولينا، مستغيثين بصرخة عمورية، تدوي في أرجاء وطننا الحبيب، طلبا للنجدة من قرار سياسي شبيه بقرار المعتصم الذي لبى نجدة «**وامعتصماه**»، ولتكن هذه صرخة كل مواطن غيور على وطنيته لإنقاذه من تفشي الجرح اللغوي النازف؛ لنرد لأبنائنا الفرحة المقرونة بطلاقة اللسان المعبرة عن مكنونات صدورهم، ونستنهض همتهم لتحقيق وعد الشهداء، ولنزرع فيهم الإيمان بلغتنا الجميلة التي تشوهها رياح الشمال، وتضرم فيها النار، ولم تتركها هذه الرياح في إلهاب نارها، وتزويدها بالحطب، كلما خمدت، وسكن لهيبها؛ الأمر الذي أوصلنا إلى مفترق الطرق. ومن وراء هذه الكلمات المعبرة عن صوتنا الشجي ندعو مسئولينا، أيضا، إلى اللجوء إلى إحكام العقل في خلق رؤية إستراتيجية واضحة المعالم لتحصين أبنائنا بالثراء المعرفي والزاد اللغوي للمساهمة في الحفاظ على سلامة التفكير السديد، وإبعادهم عن الزيف اللغوي الفاضح.

أما أن يكون بعض من مسئولينا يتهربون من تحمل مسئولياتهم الوطنية، والعَقَدِية؛ لانغماسهم في غمرة الحياة السياسية، أو بدوافع أخرى مجهولة الهوية، فإن ذلك ما يدعو إلى الدهشة، خاصة عندما نجد في اعتذاراتهم من طلب نجدة اللغة العربية، قولهم أن هناك أولويات اجتماعية، أو سياسية، أو أمنية، أو ما شابه ذلك، وأكثر من هذا وذاك قد يكون التهرب بدواعي واهية، مفادها أن لغتنا لم تعد قادرة على مواكبة العصر، أو لعدم توافرها على الشروط المتماشية مع الابتكارات العلمية (!...)، ولعل في هذا «**عذرا أقبح من ذنب**» وكأننا بهم يعالجون بالخطأ خطأ أكبر منه، بعد أن طغى بهم دَمُهُم إلى التشدق بالوهم، على حساب المصلحة الوطنية، واعتقادا منهم أن تقربهم من الآخر شفاعة لهم، وفي هذه الحال نعتقد جازمين أن كل من يحكم على عجز اللغة العربية في عدم استيعابها مستجدات الحياة والمعارف، فإن نظره قاصر إلى حد بعيد؛ إذ العجز والقصور ليس في اللغة ولكن في أصحاب اللغة؛ لأن اللغة بأهلها، تموت بموتهم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتحيا بحياتهم . ونحن الذين نقدم الزَّاد للغة، وليست اللغة هي التي تقدم لنا الزَّاد، وبالتالي فالقضيَّة قضيَّة أصحاب اللغة، ومن ثم فإن المسألة هي في جفاف العقل العربِي وجموده، كونه تعود على التَّعالم، واستسهال الأمور باللامبالاة، والاكتراث بالعلم والمعرفة، وهو ما أفْقَدَنَا الرضا في كل شيء، ووُضِعْنَا وراء تجاهل مطالب التزود بتكنولوجيا المعلومات والمعارف، حتى ظننا أننا جهلاء فعلا، مع أن الحقيقة غير ذلك على وجه الإطلاق، بدليل مجرد هجرة أدمغتنا تبدو على محياها روح الإبداع، وتشرق على وجوههم ابتسامة التفاعل مع المطالب، وتتحرر عقولهم من كل قيد، وتعطي أياديهم كل ما تملك، وتساهم في صنع التحديث الحضاري. فأين هذا من ذاك؟ وما الذي غير الوضع؟ وأسئلة كثيرة تنتظر إجابات وافية(! . . .) . . . ؟ .

اللغة العربية بين المعمول والمأمول :

تواجه اللغة العربية في قضاياها المعاصرة تهديدات عديدة لم تعد قاصرة على عامة الناس، بل أصبحت همَّ المتخصص في دراستها، كالأديب، والإعلامي، والملعلم، والطالب الجامعي، . . . إلخ . أضف إلى ذلك أنها أصبحت تشغل بال جميع الشرائح الاجتماعية في معاناتها من ازدواجية التعبير، في الغالب الأعم، وتأثير ذلك على مستقبل اللسان العربي الذي أصبح بدوره متخَبِّطا بعشوائية بين اللغة المعمولة، المستعجمة، واللغة المأمولة، المجهولة الهوية، التي نجهل مستقبلها، بعد أن فقدت اللغةُ المحافظةَ على الأدنى من الضوابط، ووصلت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط والتراجع.

وتمر الهوية العربية بوجه عام، واللغة العربية على وجه الخصوص، بأزمة خانقة، ورِدّة في المبادئ، وهي أزمة لم تشهدها الأمة العربية في تاريخها، على النحو الذي يجسده منعطفها الأخير في هذه الآونة، وإذا لم نتدارك الخطأ بالصواب في حينه سوف نسجل وصمة عار على جبين كل من عاش في هذه المدة، التي يمكن أن نطلق عليها « **مرحلة الاستخذاء والخضوع** »، أو على كل من أسهم بشكل ما في انهيار مجد الحضارة العربية وإذلالها؛ الأمر الذي انعكس سلبا على براءة براعمنا ـ في مجتمعاتنا العربية ـ المورَّثة [بفتح الراء وتشديدها] تبعات اليأس، ومعاوِل هدم الهوية من سياسة مكر الماكرين في الوطن العربي الذين كرَّسوا سياسة الهروب إلى الأمام، والتملص من المسئولية، واستحباب الضلالة على الهدي، فكان من ثمرات ذلك الهوان خلق جيل سمي بجيل الفشل، حيث فقد البوصلة، وتحالف مع اليأس، فلم يعد يدري إلا ما هو سلبي، بعد أن سُدَّت في وجهه الآفاق التي جعلت منه مشحونا ومأزوما، وفاشلا فشلا ذريعا في تحقيق الآمال، على الرغم من انتماء كثير منهم، وولائهم للوطنية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والحال هذه، لا سبيل إلى الحل إلا بضرورة البدء، والتحليق، وتدارك الأمر، بخطى راسخة، والاحتكام إلى التؤدة والأناة، وهي الدعائم التي يمكن أن نتقي بها التسرع في الحكم على اللغة العربية من بعض الناعقين، والناعرين، والمرتعدين من شدة التخوف من التحكم فيها، كونها في نظرهم لغة التخلف. ولو أنهم أعطوا لفطنة بصيرتهم قليلا من التأمل، ولحاشية إدراكهم نصيبا من المسئولية، وفرصة من التروي، ومَلِيًّا من التفكير بالعودة إلى الهوية ؛ لانبعث منهم رأي ثاقب، وعقل راجح، بعد المزيد من الرصانة والتأمل، ولأدركوا أنه مهما تقربوا من الآخر ـ أيا كان ـ لن يشفع لهم بانتمائهم إليه، امتثالا لقوله تعالى : { **وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**} (البقرة **آية** 120) .

إن أخطر ما يدعو إليه هؤلاء الأعمياء هو العمل على استبدال اللغة الأجنبية باللغة العربية في مسارها الوظيفي في حياتنا الاجتماعية ضمن المساقات العلمية والإدارية، وفي شتى المؤسسات التعليمية، والمدنية، والاقتصادية، والإعلامية إلى غير ذلك من المسارات التي رأوا فيها المنقذ من الضلال (! . .) غير أنه في اعتقادنا، كما هو الشأن لدى الكثير من الغيورين على هويتنا أن كل من يصر على إبعاد اللغة العربية من خارطة الذاكرة العربية هو قاصر النظر، وعاجز عن خلق المبادرة، وتقاصرت مواقفه، وتضاءلت أنفته، وقلت نخوته، واهتزت مروءته تجاه حضارته ووطنه.

لقد اكتوينا ـ في الجزائر بخاصة ـ بحمى الشعارات الجوفاء التي تحمل، مناصرة، لافتات التعريب الادعائية بما ليس يراد له، تلك الحملات التي استغلها البعض بدافع تنظيم جودة اللغة العربية، حتى أصبحت كلمةَ حق يراد بها باطل، حيث وُظِّف حقُّها في الاسم، بينما وُظِّف باطلُها في المسمى الذي كان يراد منه التشويه من قبل بعض الفئات، ومن دون أن تكون لدى الجهة المخلصة لتلك الحملة الكفاية لإنضاج الفكرة، وطرحها بشكل مدروس، أو إيجاد محاولة جادة لوضع التعريب على النهج السليم، المراد له، كبديل فعلي وعملي للغة الأجنبية التي تربعت على عرش التسيير الإداري والساحة الثقافية منذ ما يزيد عن 150 سنة، بعد أن اعتمد أنصار هذه اللغة على السير قدما في تثبيت هذا التوجه، وكأننا بهم يستندون إلى الركيزة الأساسية ـ لتحقيق أمن اللغة الفرنسية ـ التي أطلقها لويس التاسع في أثناء حملته على مصر لاستعادة شرف الصليبيين والتي وقع فيها أسيرا، وبعد أن أطلق سراحه مقابل فدية قال قولته الشهيرة والمجسدة إلى يومنا هذا في كافة مستعمرات فرنسا : « **لقد تكسرت الرماح والسيوف فلنبدأ حرب الكلمة** » وها نحن نسير على خطة لويس التاسع بخطى وقع الحافر على الحافر؛ لنتمم له مسيرته وفاءً لأمنيته(! . . .) ولا غرابة في ذلك، وبعد أن استتب أمن فرنسا في الجزائر أصدر [شوتان] وزير داخلية فرنسا عام 1938 مرسوماً يعلن فيه « **أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ومحظور تعليمها أو العمل بها** » .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأمام هذه الحال، وفي مواقف عديدة تصب في التوجه نفسه، كيف السبيل إلى الخروج من عنق الزجاجة، حيث انهيار روح الأمة العربية ـ بوجه عام ـ وإرثها الحضاري الزاخر، وفقدان لثقافتها الغنية، وطمس لهويتها الشامخة. وهل ندرك معنى: أن لغة الآخر إذا استبدلت باللغة الأم وانحدرت إلى الحضيض «**أسرعَ إليها الفناء**»؟ أم أننا في حكم مقولة ابن خلدون التي نظرت إلى «أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيّه، ونِحلته، وسائر أحواله». **أ هذا هو موقعنا في الوجود؟ أهكذا يراد لنا أن نكون؟**. وفي المقابل ما هو الدور الذي قام به نظام تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي بوجه عام، واللغة الفرنسية بخاصة في الجزائر منذ وجودها حتى يومنا هذا ؟ وما هي النهضة التي قامت بها هذه اللغات بعد أن كرسنا لها الأموال الطائلة؟ وهل حقيقة اللغة العربية جامدة ؟ وإلى أي مدى نجحنا في إنقاذها من هذا الجمود؟ وكيف نضمن لها النجاح حتى تغدو لغة مأمولة علميا؟

ومن المؤسف أن نقول: إن آلية التفكير في الوطن العربي مازالت تتعفر في وحل العجز المنهجي، وأن القدرة على غربلة الأمور بالنظر العقلي أبعد ما تكون عن التفكير العربي، والإفادة من طرائق البحث العلمي أصْعَبُ في استثمارها . وبالجملة فإن الذاكرة العربية في تضادٍّ مع الوعي المتشبع بروح العصر، هذا الوعي القادر على تَمثُّل المستجدات، وتكيفها مع مقومات ثقافته. وحتى في حال إيجاد فئة تسعى إلى تفعيل اللغة العربية، فإنها تحاول العودة بنا إلى الوسائل القديمة، والقفز بنا إلى الوراء بدعوى تقديس اللغة، كونها توقيفية، من دون امتلاك القدرة على دعائم التطور الحضاري والوسائل التربوية الجديدة، وكأننا بهذه الفئة تستنزف طاقتها رغبة في تحقيق انتصارات وهمية، ضاربة عرض الحائط الواقع المأمول، المشرئب إلى لغة قادرة على مواجهة التحديات، وليس ذلك على اللغة العربية بعزيز إذا كان القرار حاسما من المعنيين بالأمر، وفي حال أوكدوا العهد بينهم وبين هويتهم.

إن هناك فجوة عميقة بين واقع اللغة العربية المعمول وأفقها المأمول، ولعل الفرق بين الموقفين يكمن في هذه الفجوة التي هي داء الحقيقة، كونها لا تحمل هدفا، وأن دعاة هذه الفجوة يحملون قناعة مضللة مفادها أن العجز والتخلف مضروب علينا بوساطة هذه اللغة، وكأننا بأنصار هذه الدعوة المغرضة ـ التي تحمل مقاصد خلْفها ميول وأهواء ـ لا يرون أبعد من أنوفهم، بعد أن أعرضوا عن الحق وأقبلوا على الباطل، فتصوروا أن الأفكار والثقافات يمكن أن تستورد كما تستورد البضاعة الاستهلاكية، وأن اللغة الأجنبية هي النموذج المثال، ومن دونها نعيش في تخلف، بينما هم في حقيقة الأمر، نعتقد أنهم، يحلقون خارج السرب، وخارج نسيج النسق الثقافي المتجذر؛ لأن واقع الثقافة أكبر من جَذْر اللغة العربية واستئصالها، وأكبر من اكتساب لغة أجنبية لا تحمل سمات المجتمع، ولا تطبع خواصه. من هنا كان الصراع بين المتغربين بانتهاجهم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مسلك اللغة الأجنبية سبيلا، وبين الواقع المتشبع برصيده اللغوي الأثيل؛ الأمر الذي خلق واقعين متضادين كل منهما يصارع طواحين الهواء ـ كصراع دون كيشوت الذي لم يحصد من وراء صراعه أي جدوى، ومع ذلك كان يحاول أن يستمر في النزال ـ فتشتت السبل من وراء هذين الواقعين : واقع متغرب في تشبثه باللغة الأجنبية، وواقع متعرب، في تمسكه بدفاعه عن اللغة العربية التليدة، وضاع الطرف الثالث، وهو ما يمكن أن نطلق عليه «**فضاء الصوت الصامت**»، وعلى الرغم من صمته إلا أن بصيرته كانت تحمل راية تفعيل اللغة العربية بحسب مستجدات الحياة العصرية في أدائها، وجعلها قابلة للتحاور مع العلوم والمعارف، وإذا كان هذا الطرف ـ الثالث ـ قد وجد صعوبة في خلق بديل، قوامه تفاعل اللغة العربية مع متطلبات الحياة، فإن الطرفين الأولين ظلا يتعفران في مرتع حظيرة يتجاذبهما صراع الثيران ـ سقط في هذا الصراع مسعى اللغة العربية تحت الحوافر، حيث رأى كل طرف في موقفه التِمَاعاً، بينما هو صراع قادنا إلى خط الانحدار، فظل الصراع وضل الهدف، وكأن المواجهة بينهما «أشبه بتلك المعارك التي كنا نألفها جميعا في المراحل المبكرة من أعمارنا، حين يقف أحد الطفلين على عتبة البيت الكبير الذي يسكنه إخوته وأبواه وأجداده وأعمامه ويواجه طفلا غريبا عن الحي، فيستطيع بصيحة واحدة أن يتسنفر عشيرته كلها لنصرته، على حين يقف الآخر مترددا في استخدام ما يملك من قدرات؛ لأن الأرض التي تدور حولها المعركة ليست أرضه.»(1) وهذا هو حال اللغة الأجنبية أنَّى كانت، شأنها شأن هذا الطفل الغريب عن الحي . وليست اللغة العربية أكثر حظا من اللغة الأجنبية في مثل هذا الموقف حين نستنفر لحمايتها شأن استنفار عشيرة صاحب الحي لنصرته؛ إذ النصرة والحماية لا تتأتيان بالحَمِيَّة والتعصب والفظاظة، وإنما بالاهتمام المتنامي بموضوع كيفية الجودة هو سبيل القصد المنهجي.

اللغة العربية في ميزان العولمة

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن مكانة اللغة العربية بين لغات العالم، كما يكثر الحديث عن دورها المعرفي في ظل العولمة، وهل حقيقة ما يروج من أن دور اللغة العربية ينحسر في امتداد مسيرتها المعنوية والأخلاقية ؟ وإلى أي مدى تكون أقرب من العلوم الإنسانية، وأبعد ما تكون من العلوم الدقيقة وتكنولوجيا المعلومات .

ويبدو أن أهمية التساؤل عن مكانة اللغة العربية مشروعة، ومشفوعة، بتحسرنا على دورها، وتلهفنا على مجدها، بعد أن كان لها موقع الصدارة في يوم الفتوحات، بما أتيح لها من دور فاعل في الوجود الحضاري .

(1) ينظر، عبد العظيم الديب : التبعية الثقافية، وسائلها ومظاهرها، ضمن كتاب ندوة الثقافة العربية الواقع وآفاق المستقبل ، جامعة قطر، 1993، ص 338 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإن الحديث عن اللغة العربية بهذه الطروحات يقودنا إلى الحديث عن المعرفة بوجه عام ،وفي حال إمكان ربط العلاقة بين الدور المنوط بها والرغبة في النهوض بالحركة العلمية، نصل إلى أن اللغة العربية لا تشكل الواجهة الحقيقية لمسار الاكتشافات العلمية، وهذا يجرنا إلى عدم وجود مناخ علمي، ناهيك عن وجود عوامل من شأنها أن تسهم في شيء اسمه «**علم**» في المعمورة العربية. ولكن، أين الخطأ هنا؟ في اللغة أم في راعي هذه اللغة؟ ذلك أن مرتكزات العلم ـ أنَّى كان موقعه ـ بحاجة إلى مبادرة وإلى قرارات مسئولة وحكيمة، وتبقى اللغة هي الوسيلة لتنفيذ ما تستوجبه هذه الأحكام والقرارات لإمكان بلوغ مرامي الكشف العلمي، والوصول إلى تحقيق أهدافه النبيلة، ولا غرو أن يكون هذا عزيز المرام في حال وجود العزيمة ،وأملنا في ذلك كبير، ولكن :

على قَدْر أَهْلِ العزْم تأتي العزائِمُ وتأتي على قدر الكرام المكارم

وفي خضم الرهانات المزايِدة [بكسر الياء] للذهاب بلغة ما إلى أبعد من الثانية في اكتشافاتها، أو تقربها من اللغة الإنجليزية التي أصبحت تهيمن على العالم، بوصفها اللغة النموذج على مختلف مستويات الحياة العادية، ناهيك عن مستوى تكنولوجيا المعلومات، في ظل هذا الإشكال أصبح من المسلمات أن اللغة العربية إذا لم تواكب الاكتشافات العلمية فإن استمرار بقائها مرهون بعزيمة أهلها، وبإسهامهم في صنع مقومات الألفية الثالثة، وعواملها التي بها تقوم، وإن أبقيناها على عهدها، ولم نسهم في تفعيلها بحسب مستجدات العصر، فإن أدوارها ووظائفها ستتضاءل، وتركح إلى ركن عديم الجدوى، وأكثر من ذلك قد نتسبب في تحجيمها، وتلجيمها على الرغم من حمايتها من القرآن، ووقايتها من المرجعية الحضارية، أو تتقاعس همتنا، وتتهاون قدرتنا، وتقصر إرادتنا فنسهم ـ بوعي أو من دون وعي منا ـ في موتها على حد ما قاله أدونيس «ورغم أن القرآن الكريم يحفظها، إلا أن عدم الجدية في قراءة القرآن، يجعل موت اللغة العربية فرضية يجب النظر فيها[1]، من هذا المنظور يجب التأمل بجدية في مصير لغتنا التي تمثل هويتنا أمام الزحف الجارف، والسيل الكاسح لمظاهر العولمة، حيث أجمع جل الباحثين في مختلف أنحاء العالم أن عولمة الثقافة، وتربع اللغة الإنجليزية على رأس قائمة اللغات العالمية يعد أكثر خطورة على اللغات الوطنية من الغزو الاستعماري على الأوطان، وذلك من خلال إضعاف هويتها، وسلخها من شخصيتها؛ الأمر الذي ينعكس سلبا على بناء ثقافة الناشئة، وخلخلة هويتهم العربية الإسلامية .

(1) في محاضرة ألقاها بالمجمع الثقافي ضمن فعاليات «معرض أبوظبي الدولي للكتاب» ينظر، http://www.alarabiya.net/

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد يبدو للرائي أن هناك اهتماما متزايدا من قبل المعنيين، في المؤسسات، بشأن تنمية اللغة العربية في الوطن العربي، غير أن هذا الاهتمام في خلفيته ـ بحسب منطق اللامعقول ـ يبدو هَرَمًا معكوسا، أو في شكل هندسي مخروط، قاعدته مستديرة تعكس الإحاطة المركزية في جوهرها بموضوع التعريب، بينما تعكس نهاية هذا المخروط نقطة رأسية ضيقة، تعكس نتيجةً مقصودة، عديمة الأهمية، ومفرّغة من ثمينها النفيس، ومن معدنها، ووضعت موضع عنق الزجاجة، فأريد لها أن يكون من ثمارها التعريب، وتحويله إلى « جعجعة بلا طحين » ولم نجن من هذا الطحين غير الإحباطات والانتكاسات، ولم نجد ما يشفع لنا غير البكاء على « ليلانا » مُذْ كانت مجد الشعر العربي، ورمز الثقافة العربية التليدة.

لقد بدأت ظاهرة العولمة تؤثر تأثيرا سلبيا في جميع المجالات، بخاصة ما يتعلق بالثقافة في مضامينها وأهدافها، وعلاقة ذلك باللغة القائمة على أجواء هذه الثقافة التي أصبحت ممسوسة بخروقات العولمة المموِّهة للحقائق، والمفسِدة للمرجعيات، « وإذا كانت العولمة الاقتصادية واضحة كل الوضوح، فإن العولمة الثقافية ـ على العكس من ذلك ـ ليست بنفس وضوح العولمة الاقتصادية . كما أنه إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو للبعض مكتملة على أرض الواقع، والعالم أوشك أن يكون معولما عولمة اقتصادية كاملة، فإن العولمة الثقافية ليست بنفس القدر من الاكتمال »،[1] نظرا إلى ما ينتابها من شكوك في محاولة الهيمنة على العالم، كونها موضع الريبة والقلق والاضطراب .

ويعتقد أنصار هوس العولمة من بني جلدتنا ـ العَقَقَة ـ أن للغة العربية إخفاقات كثيرة منها :

- زوال صفة ثبات اللغة العربية أمام اللغات الحية.
- انتفاء القيمة الجوهرية للغة العربية في ظل العولمة.
- عقم الثقافة العربية لا يشجع على تبني اللغة العربية وإحيائها.
- انقطاع الثقافة العربية عن دوران الركب الحضاري، فانقطع بها حبل التواصل.
- عجز الوعي العربي عن تمثّل روح العصر والدخول في الألفية الثالثة.
- عدم الإسهام في مشروع الحداثة وانبتات التواصل مع ما بعد الحداثة.

أمام كل هذه المثبطات ـ وغيرها كثير، لكفاية ما ذكرنا ـ يبدو على أنصار النموذج الغربي، في حَرْفيته، الرغبة منهم في إلحاق ثقافتنا بالغرب، متناسين أن الغرب لا يعترف بغير ذاته، وكل ما يصب في اهتمامه بالآخر لا يخدم إلا مصالحه، في وقت كان مناصروهم « **ملكيين أكثر من الملك** »، ومهما تنطعوا في لغة الآخر، أو تراطنوا، لن يكونوا إلا أداة طيعة لمحاولة تدجين ثقافتنا

(1) عبد الخالق عبد الله : العولمة ـ جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها ـ عالم الفكر 2/28 أكتوبر، ديسمبر، 1999، ص 74 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وترويض وجودنا، وقد أصبح هؤلاء الأنصار بيادق لعبة شطرنج في أيدٍ متقنة. لذلك نعتقد أن سبب مشاكل أمتنا العربية، وتخلفنا، وتراجع لغتنا، وحضارتنا هو تعصب هؤلاء لثقافة الآخر وارتباطهم به ارتباط اللحم بالعظم، سواء في أثناء حقبة وجود المستعمر في أوطاننا، أم عندما خرجوا، بعد تفطنهم أن بقاءهم في هذه الأوطان لا يخدم مصالحهم بالقدر الذي يخدمها وهم خارجه، على نحو ما قاله جاك بيرك حين نصح فرنسا : «**إذا أردتم أن تبقوا في الجزائر فاخرجوا منها**» ولا أدري هل بمقدور عربي واحد أن يصرف وجهه عن هذه المقولة في تطابقها مع بعض الشرائح في مجتمعنا من الذين استقوَوا أبرياء الذمة، سواء في الجزائر أم في باقي الدول العربية التي رزحت تحت وطأة حروب الاستعمار، ووهنت بداء الاستغلال.

وإذا أريد للغة العربية أن تكون غريبة في أوطانها فبفعل حدة المدافعين عن اللغة الأجنبية، بوصفها لغة وظيفية تمارس في مواضع عملية ميسرة مثل السيرورة العلمية، والاقتصادية، والإدارية، ممارسة فعالة، بينما هم في واقع الأمر إنما يدافعون عن ضمان تعزيزهم، والتحكم في التدبر والتدبير، مفضلين مصالحهم الشخصية على معزة الهوية. من هنا جاء رد فعل الجيل الناشئ، الذي كنا نراهن به على الوعد الناجع، سلبيا من دون وعي منه بإدخال لغة ـ أو بالأحرى لهجة ـ ثالثة جعلت من حديث الشارع، وحديث السوق، وحديث عامة الناس معجما له، يستقي من هذا الحديث المائج فيض اصطلاحات هذه اللغة العفنة التي دبّت ونَمت بشكل لافت، وجالب للنظر، وداع للحيرة ،حتى أصبحت دارجة في المؤسسات التعليمية، ووسائل الإعلام، واللافتات، والتظاهرات على الرغم من كونها هجينة وساقطة، وكأن اللغة العربية أصبحت في خبر كان، ولم تعد تفي بالغرض، وتجاوزتها الأحداث بحسب تصور هؤلاء المهجّنة، وبسلوكهم الهجين، ولسانهم المعتل، ولعل في قول الشاعر ما ينطبق عليهم :

لا تُسابقْ في حَلْبة العِزِّ ذا العِلم فمــا للهجين شــأنُ الجــــوادِ

إن التعصب للغة الأجنبية، بدافع مسايرة العولمة ومشتقاتها من الوسائل المدمرة للهوية الوطنية ـ حيثما كانت ـ في جميع أنحاء المعمورة، من شأنه أن يضعف لغتنا التي صمدت في وجه كل المؤامرات عبر العصور، وإذا كان دعاة التعصب منطلقين من قناعة أن اللغة الأجنبية لغة وظيفية في مجال التداول السليم للمعرفة والعلوم، فإن الدراسات العلمية، والتجارب الجادة، والمستخلِصة لنتائج نفعية، وقدرة متبصرة، أثبتت أن محركات البحث في الثورة المعرفية تقبل أي لغة يراد لها الحياة، وأن آلية هذه المحرِّكات في يد أصحابها، وليست في اللغة، وفي مثل هذه الحال ماذا يفعل اللسان إذا كانت الجثة هامدة. ولنا في ذلك أمثلة عديدة ـ كما سيأتي الحديث تباعا عن بعض اللغات ذات الأقليات، وأثبتت وجودها علما وعملا ـ مثل اللغة الفنلندية، والدنماركية ،والعبرية التي أصبحت بين عشية وضحاها لغة نووية. والقائمة طويلة، عريضة، من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اللغات التي تَمكن أصحابها من تطويعها وتفعيلها، كونهم تبنوا سياسة لغوية حكيمة، شأن الحكمة القديمة التي أطلقها الفيلسوف الصيني «كونفوشيوس» عندما دعا إلى تهذيب اللغة وتنقيحها حتى تسهم في وضوح الأمور وجلائها، كونها مصدر الصواب في كل شيء، بعد أن سئل عمّا يودّ أن يفعله إذا حكم البلاد. فأطرق كونفشيوس لحظة، ثم قال: **أصّححُ أسماء الأشياء**. وما علاقة تصحيح الأسماء بالحكم الصالح؟! أجاب كونفشيوس: **عندما تكون أسماء الأشياء مغلوطة يصبح الكلام غير صحيح، وعندما يصبح الكلام غير صحيح لا يجري العمل بشكل صحيح، وعندما لا يجري العمل بشكل صحيح يُصاب بالضرر كيان المجتمع، وعندما يُصاب بالضرر كيان المجتمع لا تعود العقوبات تناسب الجرائم، وعندما لا تناسب العقوبات الجرائم لا يعرف الناس ما يفعلون**[1]. ولعل في رسالة كونفوشيوس ما يفيد الأهمية القصوى التي يمكن أن تكون عليه اللغة في تسمية الأشياء بشكل صحيح عن طريق اللغة، وهذا ليس أمرا هينا في حق مستقبل أجيالنا وهويتنا.

إننا بحاجة إلى قرارات مسئولة، وشجاعة، وحكيمة، لجعل اللغة العربية ناصية اهتماماتنا، وذوقنا السليم، حتى لا تتأثر باللهجات في محيط استعمالها، كما نجعل منها لغة تسهم في توطين العلوم والمعارف الجديدة، وفي هذا ما يشكل مدخلا لثورة « فكرية على من يصرون على اختصار اللغة والبحث اللغوي في النحو والصرف، واختصار النحو في الإعراب، وتجريد اللغة من جوهرها الثقافي والمعرفي، وجعلها وعاء فارغا بلا محتوى. واللغة أخطر من أن تترك لعلماء النحو وأساتذته وحدهم، وأكبر من أن تحصر في هذا الاطار الضيق الذي لا يتناول الغايات والوسائل ومستويات اللغة: فصحى وعامية، واللغة والعلم، واللغة في عصر العولمة [2]. واللغة بهذا الشكل مسئولية القرار الحكيم قبل أن تكون مسؤولية الجميع بخاصة المدرسة التي ينسب إليها فشل إتقان اللغة على الرغم من تحملها جزءا كبيرا من هذا الفشل.

اللغة العربية وثورة المعرفة

لقد أحدثت كثيرٌ من الثورات ـ قبيل انثناء نهاية القرن العشرين، وبداية الألفية الثالثة ـ تغييرات جذرية في تقنية صناعة المعلومة المعرفية، منها على سبيل المثال، لا الحصر، ثورة الاتصال [بما فيها ثورة الميديا] والثورة الرقمية، وثورة الجينات، وثورة الشيفرات الوراثية، واختراق الزمن، وابتلاع الضوء، وغزو الفضاء، إلى غير ذلك من الثورات التي تَغيب عنها أي مشروع عربي يسعى إلى الاندماج في هذه الثورات، أو الإسهام في بلورتها؛ الأمر الذي جعل

(1) ينظر الرابط: http://www.almosul.org.

(2) فاروق شوشة: إنقاذ اللغة.. إنقاذ الهوية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمة العربية ـ بخاصة ونحن على إطلالة الألفية الثالثة ـ نعيش في ركح زاوية حادة، في انتظار زحزحتنا إلى الهامش لنكون خارج الحدَث.

وإذا كان مركز العالم يتحول بدراسة محكمة، وبرؤى استراتيجية، إلى هذه الثورات المعرفية، فإننا نأبى الخوض في تجربة المشاركة في صنع هذه الثورات، وكأننا لا نشعر بقيمة فعلها المنجز إلا باستهلاك نتائجها، وما تحتويه من مضامين، تصلنا بسهولة ويسر، ومن دون عناء يذكر. وقد ساعد على تأخرنا، في جميع المجالات، إهمالنا لغتنا، وعدم معرفة الترويج لها لقصور التفكير، والإصابة بمرض التعالم، واهتمام العقل العربي بالشيئية، وذهان السهولة، حينما يبادر إلى حل إشكال صعب فيخرِّبه لعدم معرفته بالطرق السليمة لحل هذه الإشكالية، أو هذيان الاستحالة ـ على حد رأي مالك بن نبي ـ عندما نرى « الأمور مستحيلة، ونقف أمامها عاجزين، وهي في الحقيقة غير ذلك لعدم تمكننا من أدائها، لفقده الوسائل التعبيرية والمنهجية، والكفاية القادرة على حلها، أضف إلى ذلك اعتماد التجارب الفارغة من أي محتوى فكري ».

وفي خضم هذه الأجواء العفنة لا سبيل إلى النهوض باللغة العربية ما لم نحسم طرق تدريسها، والاهتمام بها في جميع المؤسسات حتى تصبح آهلة للتعايش مع الألفية الثالثة، وتصبح قابلة للصرف مع الثورات المعرفية والرقائق الإلكترونية، والابتعاد بها عن الانفصال الفكري المفروض عنا، ومنا، في الخارطة العربية، وجعل الخطاب سائدا في جميع مرامي الحياة باللغة الأجنبية، من أدنى مستويات التوظيف إلى أعلى هرمه. ولعل هذا ما جعلنا محاصرين بقيود لغات الآخر، وذلك نتيجة تراكم قرون من الابتعاد عن وظيفة اللغة العربية والمعرفة النافعة، والعمل الجاد؛ لذلك أصبحت الأمة العربية ـ كما جاء في رأي مالك بن نبي ـ « كالفارس الذي أفلت الركاب من بين قدميه ولم يسترده بعد، فهو يحاول أن يستعيد توازنه »[1].

والحقيقة أن التحديات التي تعيشها اللغة العربية لا تقتصر على كيانها فحسب، بقدر ما تمس، هذه التحديات، كيان المجتمع العربي برمته، خاصة ونحن نعيش حالة الشغف بالاقتداء بالآخر [الغالب] في جميع مواصفاته، متناسين مقولة ابن خلدون : « أن الأمة إذا غلبت، وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء ». وكذلك بعد أن يفقد المجتمع فعاليته عندما تَنبتُّ الصلة بينه وبين لغته، وبين أفكاره المطبوعة وأفكاره الموضوعة.

ومن هذا المنظور استوجب الأمر منا ترسيخ حب لغة أحلامنا، وارتباط روحنا بها، وهذا في تقديرنا أهم عامل، والأكثر أهمية، في بناء شخصيتنا. ولكن، كيف السبيل إلى ذلك ؟ ثم كيف السبيل إلى تطوير اللغة العربية في ظل اكتساح جرَّافة اللغة الإنجليزية بقية اللغات التي يراد لها الاستخذاء ؟ وكيف يرضى ذووها الخنوع والذل، ويخضعون للآخر وإضعاف شخصيتهم؟ وقبل ذلك ما هي محركات تفعيل اللغة العربية في ظل العولمة، وتكنولوجيا المعلومات؟

(1) مالك بن نبي : مشكلة الأفكار. ص 217.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لعل أهم محرك هو التحصيل المعرفي، والتحصين الثقافي المترامي، مع العلم أن المعرفة تضمن للإنسان مجموعة محركات، من أهمها:

- الزاد العلمي، وكل ما يُستخلَص من أنواع المعرفة.
- قدرة الاستيعاب.
- اكتساب الخبرة، من عوائد المهارة اللغوية، ومن الاستنتاج والتعمق في التحليل، والتبصر في التفكير. ولو كان ذلك كذلك، في السنوات التسعين في الجزائر، لتروَّى شبابنا في الأمر وتريث في انفعاله، ولتبيَّنه وصيَّره، وما كان ليحدث ما حدث.
- القدرة على التركيز.
- رفع المستوى السلوكي والأخلاقي الذي من شأنه أن يسهم في التفرقة بين الصواب والخطإ.
- تعزيز المهارة.
- تنمية القدرة الذهنية.
- ارتفاع مستوى آداب الجودة.
- تثمين القيمة، كونها السبيل إلى معرفة الصالح من الطالح، ومن يضلل المعرفة فلا سبيل له إلا العنف، وهو الحاصل في نسقنا الثقافي.

ومن الثوابت في الدراسات العلمية أن أية معالجة للتنمية البشرية لا تفلح من دون التعامل معها ضمن سياق تفتح عقول الناشئة على العمل المعرفي. وبنور المعرفة، من مهارة اللغة، يحصل منه نور اليقين، وبحصول ذلك النور تتضح الحقائق والأمور، أضف إلى ذلك أن إثارة الوعي بدور اللغة، وما ينتج من ثمارها، تُمكِّن القوةَ المتضمَّنةَ في القول. وبسلامة اللسان نضمن، نسبيا، العدل الاجتماعي، ونشر القيم الفاضلة، وكثرة طلب المودة . ولو افترضنا الطرح العكسي، فليس لنا إلا النظر في المرآة العاكسة لما حدث في العشرية السوداء قبيل انثناء القرن العشرين حيث دفعنا الثمن غاليا في الجزائر ـ لولا السياسة الرشيدة في بداية الألفية الثالثة ـ ،لاستفحل الأمر، على الرغم من أن أصداءه ما زالت كلْمَى، وأوجاعه أدْمَى؛ كل ذلك الضرر ناجم من أن إهمال اللغة، وقلة الاطلاع، وانحسار القراة، والتشبع بالمعلومة المسمومة، يؤدي بالضرورة إلى انغلاق الأفق وانسداد الرؤية، وحصر البصيرة في خانة ضيقة بتوجيه من الجهل إلى العنف، وكل ما يدور في فلكه من ارتدادات جارحة. ولعل المحصلة من وراء هذا الإهمال أننا جعلنا من براعمنا عصافير خشبية لا تقوى على الطيران، لأن التلميذ في مدارسنا لم يزود باللغة التي تمكنه من التحصيل العلمي والتحصين الثقافي، والتحليق في الإبداع، والإمساك بالريشة الفنية، عوض الإمساك بالعصا ـ الآلة ـ الفتاكة؛ لذا فهو ـ بحسب رأي أحد الباحثين ـ أشبه ما يكون بالطائر الخشبي العاجز عن الحركة، أو الطائر الجارح المسلوب الروح والإرادة. فما الذي حول طيورنا الجميلة إلى طيور خشبية، أو طيور جارحة؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن الهدف **التربوي / التعليمي** بحاجة إلى رؤية استراتيجية حكيمة ترعى مصلحة الهوية قبل مصلحة الحياة اليومية الاستهلاكية في جميع مكوناتها؛ لأن هذا الهدف ـ المتبع حتى الآن ـ لا يقوم على برهنة الشيء بمسببه، ولا يُخضِع المتلقي للملاحظة التحليلية، أو الداعية إلى التبصربالقدر الكافي، وإذا كنا نعترف بجهود القائمين على منظومتنا التربوية[1]، وإذا كنا نقر بصعوبة التحكم في العدد المتزايد في الصفوف، وإذا كنا نعترف بوجود خطط منهجية جيدة، وإذا كنا نعترف بهذا وغيره كثير من جهود المعنيين بالأمر، فإن ذلك لا يكفي ما لم تحصن الجهود بطرق منهجية ،أكثر صرامة، أو كما قال الفيلسوف ديكارت: « **لا يكفي أن يكون لديك فكر جيد، ولكن المهم أن يطبق جيدا** » .

فكيف لنا أن نطبق فكرنا جيدا ؟ وقبل ذلك كيف لنا أن نقرب لغتنا من هذا الفكر الجيد، والإبداع العلمي، الكشفي؟

منذ البداية نعترف أن لغتنا العربية تصارع المواراة، وتعارك الأشباح، وتقاوم التحدي، وتجابه الظُّلمة التي تتخفى بتلاوين وأصقاع من صراعات، وتحولات سوداوية المسوغات في نتائجها. وهذا ما لم يستسغه الخطاب الوطني الغيور على لغته العربية التي تمثله، كون تلك المسوغات فتحت مجراها على التحايل، والتشويه، والزيف. والحال أن اللغة العربية في ظل صراعات دون كيشوت بحاجة إلى سياسة رشيدة، وقرار حازم لاتخاذ ما يلزم، حتى نرقى بلغتنا إلى مصاف الرقي الحضاري. وما لم نحل مشكل لغتنا المعبرة عن هويتنا لن نصل مهما سلكنا من سبل .

ولعل ما يدعو إلى الحيرة والدهشة، وهذا ما ننتظر الإجابة عنه من الحاقدين على اللغة العربية، هو: كيف تناغمت بعض اللغات التي كانت ميتة مع متطلبات العصر، مثل اللغة الأردية، واللغة التركية التي استبدلت حروفها في عهد أتاتورك [1881 – 1938] الذي أراد لها أن تنافس اللغة الأوروبية، أو تلك اللغات التي انتعشت بذويها، ونهضوا بها، ولنا في ذلك أمثلة كثيرة تفوق كل حصر نذكر منها:

- اللغة الصينية المتناغمة مع متطلبات العولمة، وأصبحت تهدد الغرب في عقر داره بمنتوجاتها المنافسة لصناعة الغرب المتميزة.
- اللغة الأردية التي أصبح لها تأثير على اللغة الهندية على عراقتها.كما أن حروفها مقتبسة من الحرف العربي وهي اللغة الرسمية في باكستان بمسوغاتها النووية.

---

(1) وقد كنا أحد الذين أسهموا في التكوين بتجربتنا البسيطة التي قاربت الأربعين سنة، ونتحسَّر على ما آلت إليه المدرسة الجزائرية التي تراجعت إلى الخلف، حيث بداية الاستقلال، رغم قلة الموارد، والتجربة آنذاك، إلا أن النتائج أثمرت كل علماء الجزائر الذين هاجروا البلد، وشتان ما بين الأمس واليوم. بعد أن جنى الآخر ثمار ما زرعته الجزائرعندما هاجرها معظمهم. فراحت ثمرة التكوين هَبَاءً مُنْبَثّاً، بدوافع متعددة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

• **اللغة الكورية** المسماة بـ« الهانكول » ويعود تأسيس حروفها إلى العالم اللغوي « جو شيج يونج » (1913)، ولها ما لها في الساحة التكنولوجية اليوم.

• **اللغة الفارسية** التي أصبحت لغة نووية، وتناور الغرب في تقنياته العلمية، بعد أن باتت تقض مضجعه وتؤرقه، وتهدد العالم في **نظر الغرب**.

• **اللغة الفنلندية** التي يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة وجعلوا من لغتهم لغة صناعية، حتى أصبح يتباهى كل فرد في العالم باقتنائه هاتف نوكيا المصنع في فنلندا، ناهيك عن صناعات متنوعة تُستخلَص من هذه اللغة، على الرغم من قلة المتحدثين بها.

• **اللغة الدانماركية**: والتي لا يزيد سكانها عن خمسة ملايين نسمة، تميزوا بصناعة الألبان ومشتقاتها التي لا تستغني عنها أي مائدة في العالم سواء أكانت عالية الحسب والمقام، أم قليلة الخير وميسورة الحال.

• **اللغة العبرية**: وهي مثال بيِّن وواضح، ولا أحد يتغافل عن تاريخ إحيائها، ومدى دورها في التكنولوجية النووية، ويحضرني هنا قول **إفي لارنر**، الناطق باسم عضو الكنيست: « لا يوجد عندي أي شك بأن المجتمع الإسرائيلي إذا أراد الحفاظ على طابعه اليهودي عليه أن يعزز منزلة اللغة العبرية ». وأكد **لارنر** لوكالة فرانس برس: « **كمجتمع ودولة، فإن اللغة العبرية تشكل استمرارية لسلالة أجيال بدأت قبل الآلاف من السنين** »[1]. ومن دوافع غيرة اليهود على لغتهم ما ذكرته صحيفة « معاريف » الناطقة بالعبرية : « أن الكنيست وافق مبدئيا على مشروع قانون يطالب بالكتابة على الواجهات، أو لافتات المتاجر، باللغة العبرية الواضحة، وإلا فان الرخص ستسحب من المتاجر والمطاعم وأصحاب المؤسسات التي تخالف هذه التعليمات ». وأضافت « معاريف »: أن « الكنيست يعارض كتابة اللافتات بالإنجليزية »، ويهدد بسحب تراخيص الاعمال المخالفة »[2].

أمام هذه الصور المعبرة، والدالة، عن قتامة الوضع عندنا في الوطن العربي، أليس من حق برارعمنا أن تحمِّل مسئولي الوطن العربي وزر ما آلت إليه العربية، ومن تضليل مكانتها، والدور المنوط بها؟. ثم، أين هو دور المؤسسات المدنية منذ أنشئت، وحيثما كانت؟ أم أن دورها منحصر فقط في تعزيز مكانتها في البحث عن المناصب العليا؟ متناسية دورها في الحفاظ على ثوابت الأمة، واللغة الوطنية هي أحد هذه الثوابت المعبرة عن هويتنا. وإذا كانت قناعتهم بأن

---

(1) علي الطالقاني : في دائرة الاستهداف... اللغة العربية مخاوف من اندثارها، الرابط :
www.annabaa.org/nbanews/65/518.htm – 52k

(2) المرجع السابق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اللغة الأجنبية هي الحل الأمثل لمستقبلنا، فما الذي فعلوه منذ أن كانوا يدافعون عنها؟ وماذا قدمت هذه اللغة للمستقبل الذي كان قبل خمسين سنة أوَانا لمستقبل مشرئب؟ أم أن لكل شيء أوانه المخيَّب؟ ومتى يحين هذا الأوان؟ والحبل على الجرار في انتظار هذا الأوان الزاهي الذي يرزح تحت رحمة حرف السين للتسويف الموعود، وتعهداته التي قد تأتي أو لا تأتي ،بعد أن كان آباؤنا ينظرون إلى المستقبل وكأنه في متناولهم، أو على الأقل في متناول أبنائهم. فلا التسويف أجاد [أي أتى بالجديد]، ولا الأوان أفاد، ولا المستقبل ازدهر، ولا اشرأبت إليه الآفاق، ولا أفاد شيء في أوانه، ولا في غير أوانه، وتهنا وتاهت بنا السبيل بين الأوان والهوان، فأصبحنا في موضع هوْنٍ على هوْنٍ، وليتها دار لقمان بقيت على حالها، بل على العكس من ذلك أرِيدَ لنا أن نرتقي إلى الصعود نحو الأسفل بكل جدارة، ومن دون استحقاق، كوننا لا نستحق ما فعله الجهلاء باللغة العربية، وجهابذة اللغة الأجنبية الذين رأوا في ضالتهم سبيلا، ولا يعرفون أنهم في ضلال من أمرهم المشين.

وإذا كانوا يتذرعون بنماء اللغة الأجنبية بوصفها الحل الأمثل، فالأمر مردود عليهم، كون هذه اللغات الحية واكتسابها أمرا يعزز مكانة اللغة الوطنية، وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها، وليس في ذلك ما يهدد هويتنا التي تصونها لغتنا العربية عندما نتسلح بمكوناتها وضوابطها، شريطة أن تتداول اللغة الوطنية وفق الأسس العلمية، والمنظور الاستراتيجي الوطني، حتى نتمكن من تحصين الذات من كل المقومات، ونجعل منها لغة تسوّق منتوجاتنا العلمية والفكرية والثقافية ؛ ولأن الثقافة عامل مهم لكل الشعوب والأمم، فلا يمكن أن تحقق غايتها في غياب الاهتمام باللغة الوطنية، وليس غريبا أن نقول : من لا يملك آلية التمكن من لغته لا يمكن امتلاك ثقافة تؤكد وجوده في الحياة على مر العصور. وفقدان وعي الهوية، والانتماء، دليل على الارتماء في قاع ثقافة الآخر، والنيل من ثقافة الذات.

وفي مثل هذه الحال ليس لنا إلا أن نؤكد أن التمكن من اللغة العربية هو الحاجة العليا لزرع الوطنية « ونحن اليوم، والأمة العربية تقرع أبواب القرن الحادي والعشرين، وقد أثخنتها الجراح، وأثقلتها الحروب المصطنعة والهزائم المصممة، والاستسلام المهين أمام العدو، لنجد من واجبنا أن نعيد النظر في السياسات اللغوية في جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية والتربوية . وليس ذلك لأنها تحدد هويتنا الحضارية فحسب، ولكن باعتبارها العنصر الأساس للتقدم العلمي والمشاركة المبدعة في بناء الحضارة الحديثة . وإن هذا الدور الفكري والعلمي الرائد الذي قامت به العربية في تاريخها الزاهر ولعدة قرون، هو الدور الذي تدعى إليه في هذا العصر من أجل نهضة علمية وفكرية، تعيد للأمة العربية مكانتها بين الأمم، وتحررها من ربقة التبعية الفكرية وتنقذ كياناتها المتهافتة من الضياع والاندثار »[1].

(1) عبد الكريم خليفة :اللغة العربية والإبداع الفكري والعلمي في العصر الحديث، الرابط : www.arabicacademy.org.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأمام تعاجم اللغة العربية على ألسنتنا، وتراطن كلامنا، وتلعثم نطقنا بلسان محبوس، فإننا نستغرب فوق ذلك أن يبتدع شبابنا عربية هجينة، فاقت كل تصور، تسمى بعربية الدردشة، وهي طريقة كتابة العربية بحروف لاتينية في الرسائل القصيرة عبر وسيلتي الشبكة العنكبوتية [الأنترنت] أو عبر الهواتف المحمولة، والكل يعرف هذه الإشكالية، ولا أحد يحرك ساكنا، والكل يتفرج بصمت مُطبَق على خطورة ما آلت إليه اللغة العربية التي صارت عسيرة في دارها، بدءا من ربِّ البيت الذي لم يَرْعَ أبناءه امتثالا لمقولة الشاعر :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ويا للعجب من نتائج تمخُّض هذا الرقص، خاصة إذا كان الراقص طفلا ـ من دون وعي منه، أو أجبر على المشاركة بفعل إيقاع الرقص ـ كيف سيكون غدا في أثناء تحمل المسئولية المنوطة به، أيا كان نوعها، وما ذنب هذا البرعم الواعد في تحمل تبعات هؤلاء المهرة في الرقص المثير والفاضح، وأمام مسئولي أبناء الغد القريب (! . . .) وهل يعتبر لوم هؤلاء المحترفين، في الرقص، تجنيا عليهم، أم على اللغة العربية؟

وحتى لا ندور في حلقة مفرغة لفزعٍ، وذعرٍ، ما يحيق بلغتنا الجميلة من أذى من أولي الضرر بها، نظرا إلى هول ما نرى، على حد قول الشاعر:

يا هولَ ما أبصرَتْ عيني وما سمعَتْ أُذني فلا أبصرَتْ عيني ولا أذني

في خضم ذلك نكتفي بإعطاء وجهة نظرنا في البديل الممكن، بحسب تجربتنا في حق وجاهة اللغة العربية ومكانتها المرموقة، والمغتصَبَة قهرا وظلما. وعلى الرغم من أن هناك حلولا مطروحة من وجاهة مفكرينا، يمكن العودة إليها في مضانها، إلا أننا ارتأينا أن نَسُوق تجربتنا في هذه الإمكانات، وهي على النحو الآتي :

- مراجعة نظم التعليم في مدارسنا بما تستوجبه الطرائق الحديثة تمشيا مع التطورات العلمية المستجدة.
- إعطاء الأهمية القصوى في المراحل الأولى من التعليم لتدريس مواد : [المحادثة، والتعبير، والإنشاء] بوصفها زادا لغويا رصينا تمكن التلميذ، الجيل الواعد، من التعبير بطلاقة عن مشاعره وطموحاته، والتي ستنعكس إيجابا على وجوده بعد تحمله المسئوليات العليا، ناهيك عن المسئوليات الأقل، فالأكثر أقلية، والمتدرجة إلى مسئوليته الأسرية.
- التركيز على الجانب الوظيفي في تعلم اللغة العربية.
- إدخال مفردات العصر عن طريق النحت والاشتقاق، أو عن طريق الترجمة السليمة، أو الاقتباس في حال أن تكون المفردة مصطلحا شائعا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

• الاهتمام بلغة الأطفال، والإعلاء من شأن أدبهم، والكتابة لهم بلغة ميسرة، يراعى فيها الجانب الوظيفي.

• توسيع خبرات المؤهلين وتعميقها، والكف عن تأهيل ذوي المعدلات المتدنية في مستياتهم العلمية، وتشجيع المتميزين للالتحاق بالتأهيل بالمكافآت المادية والمعنوية.

• حث مؤسسات المجتمع المدني على التعامل مع اللغة الواضحة.

• إبعاد دعاة العامية من وسائل الإعلام.

• مراقبة الوسائل الإشهارية المستخمدة في جميع الأماكن ووسائل الإعلام بما يخدم سلامة اللغة، خاصة ونحن نعيش عصر الصورة، التي أصبحت تشكل تأثيرا بالغ الأهمية، وسرعة فائقة في التأثير السلبي على أبنائنا.

• محاولة تقريب اللغة العربية ـ تدريجيا ـ من الأسواق التجارية، وفرض جباية على كل من يلصق لافتة باللهجة الدارجة، أو باللغة الأجنبية من دون أن يقابلها ما يعبرعنها باللغة العربية على المَحال التجارية أو المؤسسات، أو التظاهرات، ومراجعة مضامين هذه اللافتات .

• زرع حب اللغة الأم في القلب بدل وجود هذا الحب على الشفتين، وعند الضرورة.

• خلق مشروع حقيقي لتبسيط تعلم اللغة العربية، على غرار المشاريع الحديثة التي توظفها المؤسسات التعليمية العريقية لغير الناطقين بلغتهم تحت مسمى «بورصة تعليم اللغات»، كما هو الشأن في آخر ما استجد من طرق لتعلم اللغات الحية مثل المشروع الذي بدأ الترويج له مؤخرا تحت اسم :**التاندم بارتنر** [1] (**Tandem**) مختصرا من اسم

(Tandem–Sprachlernmethod)

• الاهتمام بإدراج اللغة العربية في تعلم المواد العلمية ـ في جميع المجالات ـ ضمن مناهج الجامعات ومراكز التكوين.

وإذا لم نسرع في وضع حد لأهمال اللغة العربية سوف يصيبها ما أصاب اللغة اللاتينية ـ مثلا ـ والتي تغيرت بمرور الزمن، وتوزعت إلى عدد من اللغات كالفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، فتصبح عندنا ـ لا قدر الله، بفضل وعده ـ لغة جزائرية، ولغة مصرية، ولغة سورية، ولغة خليجية، . . .إلخ، هذا إذا صح لنا أن نمتلك القدرة على ذلك، وليس لنا أمام هذا الوضع إلا «**النفخ على الجمرة كي لا تنطفئ**»، وإلا سوف نسهم في اندثارها كما اندثرت اللغة البابلية،

---

(1) وتقوم هذه المبادرة على أساس اشتراك طرفين يتقنان لغات مختلفة في تعليم بعضهما ببعض سواء عن طريق التواصل المباشر، أو الرسائل العادية، أو الإلكترونية، أو حتى بوساطة برامج المحادثة المباشرة على شبكة الانترنت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والكنعانية، والأشورية ...إلخ . وإذا كان اندثار لغة ما ينتج من إهمالها من ذويها؛ الأمر الذي يجعلها تعوَّض بلغة أخرى، فهل تستفيق نخوة العروبة، وشهامة المسئولين، وعزة نفس الغيورين على اللغة العربية، وأنفة المتحمسين، وإباء المترفعين من ذوي الاستعلاء، وتراجع الحاقدين، وجدية المؤهِلين [بكسر الهاء] وإخلاص المعلمين، وكرامة القائمين عليها، وحرص أولياء الأمور، ومن غير هؤلاء كثير، أن ينقذوا أبناء الغد القريب؛ للتعبير عن طموحاتهم بلغة واضحة، وكتابة أسطر سليمة، على الأقل، حتى يكونوا في مستوى المسئولية في حينها. أين نحن من هؤلاء ؟ وهل نترك صرخة اللغة العربية ـ على لسان حافظ إبراهيم تذهب سُدىً حين استغاثت :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي   وناديت قومي فاحتسبت حياتي

ولدت ولما لــم أجــد لعرائسي   رجــالا وأكفــاء وأدت بنـاتي

وكيف نسمح لأنفسنا أن توأد لغتنا ونبكيها مثل النساء لم نحافظ عليها» كما حافظ الرجال على لغاتهم، وبعد ذلك أين مروءة الرجال في زماننا، وإين نخوة العروبة في واقعنا . ولكن، لعل مجيبا يجيب عن سؤال البحث عن الرجل الواعد، كما قال صلاح عبد الصبور :

يا ... ... اصبر

دنيانا أجمل مما تذكر

اصبر .... سيجئ..

سيهلّ على الدنيا يوماً ركبه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com